

موقف ابن عباس من شعر البهتان*

للدكتور / فهد العرابي الحارثي

مادام الخبر الذي مر ذكره من قليل يكشف لنا، من جهة ما، ميل ابن عباس الممكن إلى شعر الحكمة، بالإضافة إلى بعض أغراض الشعر الأخرى كما ذكرنا، فإنه من الحريّ بنا أن نقف عند بعض الأخبار التي ميزت موقفًا خاصًا لابن عباس من شعر الهجاء، على الرغم من صلته بأبرز شعراء هذا الغرض في ذلك الزمان (الخطيئة)، وعلى الرغم من إقراره بموهبته وقدراته الإبداعية.

- هو المؤمنون، وهو من أخرى الناس في الأخذ به، وتمثله والحض على اتباعه، لأنه «ترجمان القرآن» في أقواله، ولا بد أن يكون كذلك في أفعاله وسلوكه وطريقة تفكيره، وأسلوب تعامله مع الأشياء والناس.

ويقول ابن عباس: «إذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك فاذكر عيوب نفسك»^(١).

وعن سعيد الجريري عن رجل قال: «رأيت ابن عباس رضي الله عنه أخذ بثمره لسانه (طرفه) وهو يقول: ويحك قل خيرًا تغنم، واسكت عن شر تسلم، فقال له رجل: يا ابن عباس مالي أراك أخذًا بثمره لسانك تقول كذا؟ قال: إنه بلغني أن العبد يوم القيامة ليس هو على شيء أحق منه على لسانه»^(٢).

هذه هي فحوى الفلسفة الأخلاقية التي ألزم ابن عباس نفسه بها، عفة اللسان، وعدم العمد إلى الأذى، فالؤمن قبل أن يتتبع عيوب الآخرين عليه معالجة عيوبه، والناس لهم - دون شك - عيوب يدارون افتضاحها في الملام، وهي غالبًا تظل مستورة، أو مغفلة، إلى أن يأتي الشعراء المأخوذون بالهجاء فيفضحوها كشفًا للعورات وتسقطًا للهنات وإصرارًا على الإضرار بالآخرين وإمعانًا في إيذائهم والنيل من كرامتهم وكبرياتهم.

لقد كان ابن عباس من خلال دفاعه عن حسّان بن ثابت يميز بين هجاء وهجاء. فهو، ضمن مفارقة لها منطقها، يهاجم هجاء، ويدافع عن هجاء، إنه يهاجم هجاء يفضي إلى الظلم والأذى والبهتان بين المسلمين، وهو في الوقت نفسه يدافع عن هجاء استدعته ضرورات مرحلية في تطور الدعوة، وقد قيل في «الدفاع» عن الحق والدين، بعد أن تألب المشركون لدحض ذلك الحق ومحاربة ذلك الدين.

إن ابن عباس الذي يدافع عن هذا اللون من الهجاء، مثالاً في شخص أبرز شعرائه وهو حسّان بن ثابت، يتخذ هو نفسه موقفًا آخر من الهجاء على إطلاقه، أو من ألوان الهجاء الأخرى، فهو لا يخفي إدانته للهجاء «الظالم»، ولا يوارى تحفظاته على «البهتان» وأهله.

وموقف ابن عباس هذا ينطلق من قيم مبدئية، ألزم نفسه بتدريدها، والإعلان عنها كلما واتت المناسبة، وهو في جانب من تلك القيم يستلهم روح القرآن الكريم نفسه، وهو في الجانب الآخر ينطلق من فلسفة أخلاقية خاصة لها معناها ودلالاتها.

يقول في قول الله عز وجل: ﴿ولا تلمزوا أنفسكم﴾^(١)، أي «لا يطعن بعضكم على بعض»^(٢)، وهدف هذا التوجيه القرآني الكريم - كما يفهمه ابن عباس

* عن كتابه «قال ابن عباس... حدثتنا عائشة» - الرياض ١٤١٥ هـ، من ص ٢٢٧ إلى ص ٢٤٢.

ابن عباس والحطيئة، والفرق إنما هو في كونها - أي تلك العلاقة - إما قديمة فتجددت وإما حديثة فتبثت.

والمهم هنا هو أن ابن عباس قد كرر في هذه القصة مسألة «العفو» مرتين، محباً ومشجعاً، ومنوهاً بما لذلك من فضل، فهو يقدمه على الانتقام، أو الانتصار للنفس، مادامت هناك فسحة للتسامح.

كما وردت كلمة «البغي» مرتين في سياق التكريه والتنفير، أما في الثالثة فقد وصف البغي صراحة بأنه «مرتج وخيم»، معطياً بذلك حكمه النهائي على الأذى، وعلى من يريد بالناس الأذى.

أما الهجاء فإنه - حسب رأي ابن عباس - «لا يصلح» لأنه قد يطال ما هو أبعد من المهجو، ف«يظلم» الشاعر من لم يظلمه من أهل المهجو وعشيرته، فابن عباس يدرك أن مادة الهجاء الأولى عند العرب هي «الأحساب والأنساب» ومفاخر العرق والأرومة، فلا مندوحة من الطعن في هذه الأشياء وإعلان مثالبها ومعاييبها، لأنها المنطقة الأكثر إيلافاً في وجدان العربي. وكيف للشاعر وهو في عنفوان الغضب وجنون شهوة البطش أن يتحاشى ذلك أو يتجنبه أو يبتعد عنه، وفي هذا دون ريب ظلم كبير يرفضه ابن عباس وينهى عنه.

وها هو نفسه يقول للحطيئة في المناسبة نفسها: «والله لو كنت عركت بجنبك بعض ما كرهت من أمر الزبرقان لكان خيراً لك، ولقد ظلمت من قومه من لم يظلمك وشتمت من لم يشتمك. قال (الحطيئة): إني والله بهم يا أبا العباس لعالم! فقال: ما أنت أعلم بهم من غيرك. قال: بلى والله! يرحمك الله! ثم أنشأ يقول:

أنا ابن بجدتهم علماً وتجربة فسل بسعد تجدني أعلم الناس
سعد بن زيد كثير إن عددتهم ورأس سعد بن زيد آل شماس
والزبرقان ذنابهم وشرهم ليس الذنابي أبا العباس كالراس
فقال ابن عباس: أقسمت عليك أن لا تقول إلا خيراً.
قال: أفعل! ^(٨).

إن فيما تقدم اعتراضاً من ابن عباس على اللمز وذكر العيوب، من ناحية مبدئية، شعراً كان ذلك أو نثراً، أدباً كان ذلك أو تعاملاً يومياً في علاقات الناس بعضهم البعض الآخر: «إن الله لا يحب الفاحش المتفحش» كما يعود فيقول ابن عباس نفسه ^(٥) في مناسبة أخرى. فعكرمة يحدث فيقول: «لا أدري أيهما جعل لصاحبه طعماً، ابن عباس أو ابن عمه، فبينما الجارية تعمل بين أيديهم إذ قال أحدهم لها: يا زانية! فقال: مه! إن لم تحبك في الدنيا تحبك في الآخرة. قال: أفرأيت إن كان كذلك؟ قال: إن الله لا يحب الفاحش المتفحش» ^(٦).

أما فيما يتعلق بموقفه - رضي الله عنه - من شعر الهجاء تخصيصاً، فيصادفنا هذا الخبر: «بينما ابن عباس جالس في مجلس رسول الله ﷺ (أي مكان كان يجلس) بعدما كف بصره، وحوله أناس من قريش، إذ أقبل أعرابي يخطر وعليه مطرف وجبة وعمامة خز، حتى سلم على القوم فردوا عليه السلام، فقال: يا ابن عم رسول الله أفنتي، فقال في ماذا؟ قال: أتخاف علي جناحاً إن ظلمني رجل فظلمته، وشتمني فشتمته، وقصر بي فقصرت به؟ فقال: العفو خير، ومن انتصر فلا جناح عليه، فقال: يا ابن عم رسول الله أرايت أمراً أتاني فوعدني وعزني ومنانني، ثم أخلفني، واستخف بحرمتي، أيسعني أن أهجوه؟ قال: لا يصلح لهجاء، لأنه لا بد لك من أن تهجو غيره من عشيرته، فتظلم من لم يظلمك، وتشتم من لم يشتمك، وتبغي على من لم يبغ عليك. والبغي مرتج وخيم، وفي العفو ما قد علمت من الفضل، قال: صدقت وبررت، فلم ينشب أن قدم عبدالرحمن بن سيحان المحاربي - حليف قريش - فلما رأى الأعرابي أجلسه وأعظمه وألطف في مسأله، وقال: قرب الله دارك يا أبا مليكة! فقال ابن عباس: أجروا؟! قال: جروا!، فإذا هو الحطيئة» ^(٧)، وتخلص القصة إلى أن ابن عباس قد رحب بالشاعر بعد أن عرفه، ولا ندري سبب عدم معرفته إياه أول وهلة، هل لأن ذلك اللقاء كان الأول بينهما، أو لأن ابن عباس كان قد فقد بصره، فلم يكن يدري تماماً من الذي كان يتحدث إليه. وفي كلتا الحالتين فإن ذلك لا يخل بفكرة الحديث الذي سقناه قبل قليل عن علاقة قامت، أو كانت قائمة، بين

من ثمرات المطابع

فلو كنت من زهران قضيت حاجتي ولكنني مولى جميل بن معمر^(١٣)

وكان ابن عباس تزوج امرأة بالبصرة من زهران يقال لها شُميلة، وقوله مولى جميل بن معمر أراد أنه وليه ومن قومه، وكان جميل مضرياً^(١٤).

أما القصة التالية مع ابن فسوة نفسه، فهي تظهر بجلاء الجانب الأكثر صلابة من موقف ابن عباس مع هذا الشاعر ومع شعره الهجائي البذي، فقد روي أنه «أتى عبدالله بن العباس عليهما السلام، وهو عامل لعلي بن أبي طالب على البصرة (...). فاستأذن عليه، فأذن له، وكان ما يزال يأتي أهل البصرة فيمدحهم فيعطونه ويخافون لسانه، فلما دخل على ابن عباس قال له: ما جاء بك إلي يا ابن فسوة؟ فقال له: وهل عنك مقصر أو وراءك معدى؟ جئتك لتعيني على مروءتي، وتصل قرابتي. فقال ابن عباس: وما مروءة من يعصي الرحمن ويقول البهتان ويقطع ما أمر الله به أن يوصل؟ والله لئن أعطيتك لأعينتك على الكفر والعصيان. انطلق، فأنا أقسم بالله لئن بلغني أنك هجوت أحداً من العرب لأقطعن لسانك، فأراد الكلام فمنعه من حضر، وحبسه يومه ذاك، ثم أخرجه من البصرة^(١٥)».

ونحن نقول: هل الهجاء «عصيان لله؟! أم أن ابن عباس كان قد عرف عن الشاعر أموراً أخرى، فجعل ذلك مقدمة لما سيأتي، وهو قول «البهتان»، وما البهتان هنا إلا الهجاء؟

إن كانت الأولى، فهذا يعني أن ابن عباس يظهر هنا أكثر وضوحاً وصلابة في موقفه، فهو يضع الهجاء صراحة في منطقة المحذور والمحرم، فهو سلوك من «يعصي الرحمن»، وابن عباس قد استلهم في هذا روح الإسلام وأخلاقه، إذ ينهى عن أن يلزم المؤمنون بعضهم بعضاً، كما أنه لا يحب الفاحش المتفحش كما مر بنا.

وإن كانت الثانية بحيث لا يتعلق بالهجاء من قوله ابن عباس تلك سوى وصفه بـ «البهتان»، فإن الموقف لا يقل صلابة عنه في الحالة الأولى، إذ إن قول البهتان يضع - عند ابن عباس - مروءة المرء بكافة معانيها في موضع التساؤل: «ما مروءة من يقول البهتان».

وفي هذه القصة أيضاً يردد ابن عباس فكرة «الظلم» فيجاذله الشاعر ويحاول إقناعه بموقفه نثراً وشعراً، ولكن ابن عباس لا يتزحزح، فيقسم عليه أن يدع ذلك وأن «لا يقول إلا خيراً»، وقول الخير هنا لا يشمل بالتأكيد الهجاء ولا يتضمنه.

إن الخطيئة الذي - كما ذكرنا سابقاً - يعجب ابن عباس بموهبته، وبإمكاناته الإبداعية، ثم يعتد - رضي الله عنه - بأرائه في «المفاضلة» بين الشعراء، فيسأله ويحاورة ويقره على ما يقول، هو ذاته الخطيئة الذي يجد نفسه في موضع النقد والمأخذة من ابن عباس ذاته، وقد قلنا إن ابن عباس إنما يكبر الموهبة في ذاتها، وإنما ينحاز إلى الشعر في إمكاناته ومقوماته، فهو يتحفظ هنا على «الشتم»، وعلى «الفحش»، وعلى ما يفضي إلى «الظلم»، حتى وإن صدر ذلك عن الخطيئة نفسه، وهو الشاعر المجيد، والموهبة الفذة كما يرى ذلك ابن عباس.

ومن أين لإعجاب ابن عباس بالخطيئة - مهما عظم - أن يمنع رجلاً مثله من أن يهتبل الفرصة المواتية للإعلان عن موقفه من «بعض» الشعراء، وللتعبير عن «بعض» مؤاخذته على الشاعر الذي هو محط إعجابه. إن ذلك - على العكس - سيكون أظهر لحياده وموضوعية أحكامه وآرائه.

إن هذا الموقف من الهجاء يظهر أكثر وضوحاً مع شاعر آخر غير الخطيئة هو عتيبة بن مرداس الملقب بابن فسوة^(١٦)، وهو هجاء خبيث اللسان.

فأول ما يصادفنا من أخبار ابن عباس مع هذا الشاعر ما أورده الجاحظ^(١٧) من أنه لما مدحه قال: «لا أعطي من يعصي الرحمن، ويطيع الشيطان، ويقول البهتان»، وهو هكذا يمنعه نواله لفحشه في هجائه.

وروي أن ابن فسوة قال في ذلك^(١٨):

أثبت ابن عباس أرجي نواله فلم يرجُ معروفني ولم يخش منكري
وقال لبوابيه لا تدخلنني وسدّ خصاص الباب من كل منظر
وتسمع أصوات الخصوم وراءه كصوت حمام في القليب المعور^(١٩)

ذلك التأخي ويوهنه، لما يثيره من عصبيات وثرارات وإحن وقت. كما أن الإسلام نفسه الذي أضحى نظام حياة في المجتمع الجديد، كان عليه أن يضمن للمسلمين من المتمين إليه حقوقهم في الكرامة والاستقرار والاطمئنان، بحيث لا «ظلم» ولا «بهتان»، ولا أذى يستنزف مشاعرهم وأموالهم. والظلم

والبهتان والأذى كانت كلها من الأمور المعتادة التي لا يتورع عنها شعراء الهجاء، لاسيما المحترفون منهم ممن ظهرُوا في وقت متأخر من عصر الإسلام الأول (عصر بني أمية بالذات)، حيث نفّس الهجاء وأمعن في الفحش والتهتك والابتذال وذكر العورات وانتهاك الأعراض والحرمات^(١٦)، وحيث ازدهرت النقائص التي كانت بشكل ما إحدى الصيغ المعقدة للهجاء التقليدي. ولنا أن نقدر فداحة ما كانت تتضمنه

تلك الأهاجي - في صيغها المختلفة - من فحش وبذاءة بالنظر إلى موقف بعض الرواة منها، ثم - فيما بعد - بعض مؤرخي الأدب، إذ كانوا يستحون من روايتها أو ترديدِها أو تضمينها مصنفاًتهم^(١٧).

ولا شك أن الفترة التي التقى فيها ابن عباس بابن فسوة هذا كانت قريبة، بل شديدة القرب، من فترة الهجاء المر الذي نتحدث عنه، بل لعلها كانت إحدى مقدماتها أو إحدى المراحل التي مهدت لها، فليس لابن عباس والحال هكذا إلا أن يبدو متبرماً بما يحدث، متجهماً في وجه هذا النوع من الشعر، مواجهاً منشئيه وأربابه بتلك الصلابة أو تلك القوة في الموقف، فيصفهم بعصيان الله ويتوعددهم بقطع ألسنتهم، ثم يقذفهم في السجن ويخرجهم من البصرة (ابن فسوة في حالتنا هذه).

وليس لنا أن نظن لحظة أن موقف ابن عباس هذا من شعر الهجاء متناقض مع الصورة التي سبق أن كوناهها عن حميميته مع الشعرفنا وتعبيراً، إذ يظهر هنا مثلاً صلباً عنيفاً يسجن الشعراء وينفيهم ويتوعددهم بقطع ألسنتهم. إننا نقول بالأحرى

ثم يطبق - رضي الله عنه - في حق الشاعر، إضافة إلى تأنيبه، عقوبتين أخريين: السجن يومه ذاك، والنفي عن البصرة.

لقد عرف ابن فسوة بفحشه وخبث لسانه، فهو «بيهت» المسلمين و«يظلمهم»، ويؤذيه في أنفسهم، وبيتزهم في أموالهم، وقد رأى ابن عباس «العالم» بأمور الدين أن ذلك عصياناً لله، فأنب الشاعر وأنكر عليه أفعاله، وامتنع عن أن يعطيه. كما رأى ابن عباس «الحاكم» أن من حقوق المسلمين عليه أن يحميهم من الأذى والظلم والبهتان، فتوعد الشاعر بقطع لسانه وسجنه ونفاه.

إننا هنا أمام موقف صلب ومتشدد، فهو يتخذ في حق شاعر بذئ، وفي حق شعر اشتهر بالفحش، وانتهاك الحرمات.

إن موقفاً كهذا هو الموقف المنتظر من حاكم بيده أن يحمي الناس من الأذى، فاختار تلك العقوبات جميعاً تجاوباً مع

مسؤولياته التي أنيطت به، وتناغماً مع الأمانة التي تقلدها.

الوضع هنا بكل ظروفه وشروطه ومعطياته، لم يعد يحتمل أن يتخذ ابن عباس موقفاً كالذي اتخذته مع الخطيئة، فيكتفي بعبارة كهذه:

«أقسمت عليك أن لا تقول إلا خيراً»، أو جملة كهذه «في العفو ما قد علمت من الفضل».

إن ابن عباس - مرة أخرى - حين ينحاز إلى «الشعر» والموهبة لا يعني ذلك بأي حال قبوله كل ما يقوله الشعراء، لاسيما حين يكون ما يقولونه هجاءً يحمل «الظلم» أو يتضمن «البهتان» أو يفضي إلى الأذى.

وابن عباس الذي قبل الهجاء بين مؤمنين ومشركين في حالة حرب واقتتال، وصراع بين الحق والباطل، لا يمكن أن يقبله أو يقره، لاسيما في صورته المقدعة أو المتفحشة داخل جماعة واحدة أضحت الآن في أمس الحاجة إلى حماية وحدتها وصيانة تضامنها ورعاية تأخيتها، فلعل الهجاء مما يفسد تلك الوحدة ومما يضعف ذلك التضامن، ومما يشرخ

ابن عباس لا يريد أن يتفرغ المسلمون للشعر ويشغلهم عما سواه ..

لم يعد هناك مجال لعودة الشرك إلى قلوب الذين ذاقوا طعم الإيمان، ولكن إثارة الأحقاد وبعث الضغائن عبر الشعر مثلاً، هما الطريق الأمثل إلى تفتيت هذا البناء الذي صعد، وإلى توهين تلك القوة التي تكونت وسمقت.

ومن الاحتمالات الأخرى الممكنة لفهم الخبر السابق، أن المقصود هو إفشاء الشعر لدرجة انشغال الناس به عن ذكر الله وعن القرآن الكريم كلام الله الذي انكب عليه الناس وانشغلوا به عن أي شيء سواه.

فكان ابن عباس يحذر من تجديد الصراع بين القرآن والشعر، ويحذر من عودة الشعر إلى محاولة استئناف منزلته القديمة (قبل الإسلام) من قلوب العرب ووجدانهم، فيقصي القرآن عن المكانة التي تبوأها وهي المكانة التي لا يتقدم فيها عليه أي شيء، لاسيما الشعر نفسه. فلو أتاحت هذه الفرصة وشاع الشعر تداولاً وتذكراً وانكباً، كما هي الحال من قبل، فإن ذلك سيكون هو السبيل إلى زحزحة القرآن عن سلطته على الناس، وعلى أوقاتهم، وعلى اهتماماتهم الأولى. فالشعر هو المرشح الوحيد في ذلك العصر لمثل هذه المهمة، وهو القادر على إنجازها: فيشغل المؤمنين عن ذكر الله وهم مازالوا قريبي عهد بالزمن الذي كان فيه سلطان الشعر مطلقاً، وقد يعود هذا السلطان إلى سابق عهده، وهذا ما لا يريده ابن عباس وما لا يريده الإسلام.

وابن العربي مثلاً يقول: «فلا ينبغي أن يكون الغالب على العبد الشعر حتى يستغرق قوله وزمانه، فذلك مذموم شرعاً. قال النبي ﷺ: «لأن يمتلئ جوف أحدكم قبحاً حتى يريه خير له من أن يمتلئ شعراً»^(١٩). والقرطبي يذكر أن أحسن ما قيل في تأويل هذا الحديث: «أنه الذي قد غلب عليه الشعر

إن تلك الحميمية بالذات هي واحدة من الأسباب التي دفعته إلى اتخاذ موقف متشدد صلب كهذا الموقف، فهي قد تأخذ شكل التعبير عن غيرته على «الشعر» نفسه، إذ لا يريده أن يتحول من نبع للجمال والحرية إلى عصا غليظة تهوي على رقاب الناس فتؤذيهم في أنفسهم وأموالهم. كأن ابن عباس يريد أن يحمي الشعر، وكأنه يطمع في أن ينقذه مما هو منساق إليه على أيدي السفهاء ممن لا يستنكفون عن معصية الله، ومخالفة أخلاق الإسلام وإيذاء المسلمين.

وفي خبر له دلالاته أوردته القرطبي عن ابن عباس أنه قال: «إن النبي ﷺ لما افتتح مكة رنَّ إبليس (أي صاح) رنة وجمع إليه ذريته، فقال: ايسوا أن تريدوا أمة محمد على الشرك بعد يومكم هذا، ولكن افسوا فيهما - يعني مكة والمدينة - الشعر»^(١٨).

وهو خبر - كما نلاحظ - يتضمن ظاهراً ذمّاً للشعر (كله) وإنكاراً له.

وهو في كل الأحوال خبر لم يمر بنا في أخبار ابن عباس مثله، إذ لم يصل إلينا عن ابن عباس في علاقته بالشعر، في عمومته، إلا كل ما هو إيجابي، وإلا كل ما هو منحاز إلى هذا الفن القولي من حيث هو صوت وجدان وصدى عاطفة، ولكن مهما يكن من أمر فإن هناك احتمالات ممكنة لفهم هذا الخبر والتحاور معه، ومن تلك الاحتمالات: أن المقصود إنما هو شعر الهجاء الذي دارت رحاه بين قريش في مكة وأهل المدينة، أو بين المشركين والمؤمنين من المهاجرين والأنصار قبل الفتح، وذلك لما يتضمنه ذلك الشعر من أهاج تبعث الثارات وتحبي الإحن وتنشر العصبية وتذكي الأحقاد وتقسم المسلمين على أنفسهم بعد أن توحدوا، وبعد أن ائتلفوا تحت راية الدين الجديد، فأصبح مشركو الأمس هم مؤمنو اليوم، وأضحى أعداء الماضي هم إخوة الحاضر. إن في إحياء سيرة الأهاجي التي دارت رحاها بين الفريقين أيام الخصومة والحرب، ما يمكن أن ينشر الفتنة بين المسلمين في مكة والمدينة، وربما أعادتها تلك الأهاجي جذعة بين قريش وأهل المدينة.

الكبرى للدعوة نفسها. فإنقاذ مكة من الشرك هو غاية لا تعادلها أو توازيها أية غاية أخرى غيرها. هذا فضلاً عن أن ذلك في حد ذاته يعني انطفاء أقوى الخصومات التي كانت تواجه الإسلام في ذلك الحين. وما الذي سبق ذلك الاتحاد، وما الذي سبق ذلك الائتلاف، وهو مازال ندياً طرياً، غير الخصومة نفسها؟ ولقد كان من

أدواتها شعر الهجاء نفسه. إنها الشيء الوحيد الذي مازال في الإمكان إثارته واستغلاله من أجل الهدم وتقويض البناء. إن ذلك السياق التاريخي في تطور الدعوة هو الذي يجعل من الهجاء المرشح الوحيد لذلك الذم وذلك الإنكار، اللذين صبهما ابن عباس على الشعر. فإبليس إنما رن رنته تلك، وإنما قال قوله ذاك، بعد أن «افتتح الرسول ﷺ مكة»، فهو لم يفعل ذلك - عند ابن عباس - في مناسبة أخرى، بل فعله في هذه المناسبة بالذات.

ثالثاً : إن تعيين مكة والمدينة بالاسم في سياق الخبر لا يعيد إلى الذهن إلا الخصومة ذاتها، وما الهجاء - كما قلنا - إلا إحدى أدواتها، فإبليس لم يقل «افشوا الشعر» بين المؤمنين ثم وقف، بحيث يمكن أن يفهم من ذلك: الشعر كله (الهجاء وغير الهجاء) لكنه قال: «افشوا الشعر» .. «فيهما» أي مكة والمدينة تحديداً.

فإذا احتسبنا هذا الخبر ضمن موقف ابن عباس المعروف من الهجاء، لم يزد ذلك إذن على كونه تأكيداً على ذلك الموقف، والتزاماً لازماً به، فهو لا يناقضه بل ينسجم معه ويدعمه. وقد رأينا أن ابن عباس - رضي الله عنه - كان من أكثر الناس تقديراً للأضرار والمخاطر التي يمكن أن يسببها الهجاء على الأفراد وعلى الأمة الجديدة كلها.

الهوامش :

- (١) سورة الحجرات، الآية ١١ .
- (٢) البخاري، الأدب المفرد، ص ٩١ .
- (٣) البخاري، الأدب المفرد، ص ٩٠ .

وامتلاء صدره منه دون علم سواه، ولا شيء من الذكر ممن يخوض به في الباطل، ويسلك به مسالك لا تحمد له، كالمكثّر من اللغظ والهذر والغيبة. ومن كان الغالب عليه الشعر لزمته هذه الأوصاف لما يوّب على هذا الحديث «باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر»^(٢٠).

فلا شك أن ابن عباس لا يريد للإسلام أن يصبح ثانوياً في حياة المسلمين، فيغلب عليهم الشعر الذي كان لا يغيرهم شيء آخر سواه قبل الإسلام.

ولا نرى تخريجاً آخر لهذا الخبر غير ما ذكرنا، وهو بغير هذا المستوى من الفهم والحوار لا يستوي مع السياق العام المعروف لسيرة ابن عباس - رضي الله عنه - مع الشعراء، ولا ينسجم مع النسق المنطقي لعلاقته بالشعر سواء بالنظر إلى الأخبار التي تنوه صراحة بحميميته مع الشعر حفظاً وتمثلاً ورواية وتقويماً، أو بالنظر إلى مشروعه العلمي في التفسير، إذ كان الشعر فيه - كما عرفنا - أحد العناصر الرئيسية. فلا يمكن أن يكون ابن عباس الذي ربطته تلك الصلة بالشعر هو ابن عباس نفسه الذي يرى في الشعر هذا الرأي الذي تضمنه الخبر السابق في ظاهره، من حيث هو ذم للشعر (كله) وإنكار له.

وإذا كان لا بد لنا من ترجيح أحد الاحتمالين السابقين في فهم الخبر المذكور، فإننا نرجح الاحتمال الأول، أي أن المقصود هو شعر الهجاء، وذلك لما يلي :

أولاً : لأن الخبر في ذاته لا ينسجم إلا مع موقف واحد بعينه من مواقف ابن عباس من الشعر، وهو موقفه من الهجاء كما مر بنا. فالهجاء هو نوع الشعر الوحيد الذي نقلت إلينا أخبار ابن عباس بأنه تحفظ عليه، بل رفضه وأنكره وذمه وعاقب عليه، وتوعد شعراءه. فهذه الروح في موقف ابن عباس من الهجاء هي الروح التي تقرب إليها الخبر السابق وتشده نحوها.

ثانياً : إن السياق التاريخي للأحداث في تطور الدعوة يجعل من فتح مكة نقطة تحول كبيرة في تاريخ الإسلام، إذ اتحدت القريتان، وهذا كان أحد الأهداف